أبراهام بورغ *

هو، أنا والآخر

(ملاحظة من هيئة التحرير: يعبر هذا المقال، مثل غيره من المقالات، عن وجهة نظر صاحبه، ولا يعكس موقف دورية «قضايا إسرائيلية». وعلى الرغم من عدم اتفاقنا مع العديد من الآراء والمصطلحات والتوصيفات الواردة فيه، ارتأينا نشره لأهميته وفرادته النقدية في سياق التناول الإسرائيلي (اليهودي) لموضوع معاداة الساميّة.)

عندما أوقف فيروس كورونا سير العالم وحاز على قوّته الهائلة، وكُبحت سرعة الحياة أكثر مما يكون نتيجة الحروب أو الكوارث الطبيعيّة، انكشفنا على تناقضات تشكّل حياتنا. فجأة، سنحت لنا إمكانية التأمّل في الحقائق، والتشكيك بالأمور المتفق عليها ومتابعة أنماط تحمّل المسؤوليّة بأشكال لم يشهدها الماضي، خصوصًا في فترات الأوبئة والحروب الكبرى. هناك قيادات– وعلى أثرهم هناك مجتمعات– تتحمّل المسؤولية وتتصرّف بشكل مناسب. وهناك آخرون يبحثون عن مذنبين، وأمثالهم كثر، فالجميع مذنب ما عداهم. وهنالك المشتبه بهم الدائمون. بدأ ذلك مع الصينيّين، الذي يبدو أنّ أحدهم فعلًا هو من سبّب كلّ هذا الوباء. ثم استمر الأمر بتهم مختلفة وجّهها رجال دين نسبوا الوباء لغضب الله على مسيرات الفخر، واللباس غير المحتشم للنساء، والكفر، والعلمنة، والغرور التكنولوجيّ، وما إلى ذلك. كالعادة، وجِّهت أيضًا اتهامات لليهود. هذا ما يحدث في زمن الأوبئة العالميّة. في ذروة تفشّي وباء «الطاعون الأسود» في أوروبا في القرن الرابع عشر اتُّهِم اليهود بتسميم آبار المياه في المدن الموبوءة.

* كاتب وسياسي إسرائيلي، شغل في السابق منصب رئيس الكنيست الـ ٥١، ورئيس الوكالة اليهودية.

ويبدو أنّ أجدادنا أعلنوا عن حرب بيولوجيّة، غارقة في القدم، ضدّ كلّ من يحيط بهم بسبب كراهيتهم العمياء للمسيحيّين. عند الضيق، يبحث الناس عن كبش فداء.[1] ثمّة شيء مخيف في الآخر المختلف، شيء مظلم، غامض وغير مفهوم. ويمكن، على أي حال، نسب صفات سحر وشعوذة له، وشرح ما لا يمكن شرحه بشكل عقلانيّ من خلالها. عالمنا مجنون للغاية، وهل هناك شيء «منطقيّ» أكثر من اتهام المختلف الأبديّ: اليهوديّ؟

اللاساميّة

هناك لاسامية في العالم! يبدو لي أحيانًا أنّه طالما هناك يهود في العالم ستكون هناك كراهية لليهود أيضًا. بل ربما لا حاجة لأن يكون هناك يهود كي يكرهونا. هناك أماكن لا يوجد فيها يهود بالمرّة لكن فيها كراهية فعليّة لليهود، بمثابة «كراهية غير مبرّرة».[2] إنّها أيديولوجيّة فيها كلّ شيء تقريبًا: إنّها قديمة وجديدة، من اليمين ومن اليسار، دينيّة وسياسيّة، شخصيّة وتنظيميّة، باردة في كراهيتها، مشتعلة وغرائزيّة في أفعالها. تجاهلها إنكار واقع مَرَضيّ، هروب غير صحيّ مثله مثل الإدمان عليها. ومن جهة أخرى، تبدو محاربتها بالوسائل اليهوديّة المعاصرة أمرًا غير ناجع بالمرّة.[3] اللاسامية اليوم هي دمج لأربعة مصادر: اللاساميّة الكنسيّة القديمة، النقد الحاد على إسرائيل من جهة اليسار، والذي يتوسّع ليطال شكوكًا بكل اليهود لكونهم يهودا، وشيطنةٌ جذورها في العالم المسلم الذي تطرّف ووكلاؤها موجودون في المراكز الأوروبيّة الكبيرة وذات الأهمية. وهناك اللاساميّة الجديدة من ناحية اليمين وأساسها الرغبة في تطهير المجتمع من كل ما هو ليس «هم» (وطنيّون ألمان وهم ليسوا سوى نازيين جدد، هنغاريا للهنغاريين، التفوّق الأبيض في الولايات المتحدة وغيرها).

الحديث عن اللاساميّة

يتكوّن الحديث عن اللاساميّة من ثلاثة أزمنة في الوقت ذاته. أحداث من الماضي لم تتغيّر بعد: دينيّة وعنصريّة، مهاجمة اليهود بسبب شكلهم الخارجيّ وطرق حياتهم المختلفة والانعزاليّة. إلى جانبها تُزهر ظواهر جديدة لم نشهدها في السابق، من بينها الصهر بين انتقاد دولة إسرائيل وأعمالها وشيطنة اليهود لكونهم يهودا. بالإضافة إلى ذلك، نشهد أجزاءً من عصر ما بعد اللاساميّة. ما بعد لاساميّة تمكّن شخصًا مثل بيرني ساندرز أن يكون مرشّحًا شرعيًّا لرئاسة الولايات المتحدة بحيث لا تكون يهوديته موضوعًا أصلًا، مثل ابنة وصهر الرئيس الحالي.

نحن واللاساميّة

من الصعب علينا، نحن الإسرائيليّين اليهود، فهم اللاساميّة. ليست هناك دائرة لاساميّة كلاسيكيّة في أيّ من دوائر حياتنا الشخصيّة والفوريّة. حياتنا عادية إلى حد بعيد: نعمل، نقضي وقتًا ممتعًا، نتبرع ونشارك. لا نرى في أنفسنا الشيطان الرجيم الذي ينسبنا اللاساميّ إليه. وعمومًا، نقرأ عن جرائم الكراهية، ونعرّف عن مظاهر العنف وملاحقة اليهود، لكنّ قليلين من بيننا من تعرّضوا لها على المستوى الشخصيّ. لدينا أسس من الصداقة حتّى في أصعب أنواع الخصومة السياسيّة. النتيجة هي أنّه لا يوجد أحد من حولنا يعرّفنا من الخارج. ومثلنا أغلب أصدقائنا ومقرّبينا. ومع ذلك، جزء كبير من الهويّة اليهوديّة للكثيرين منّا مبني على العلاقات المَرَضيّة، غير الصحيّة، بين اليهوديّ وال«جوي»؛ أي غير اليهوديّ. وللدقة، اللاساميّ واللاساميّة هما جزء جوهريّ من التعريفات اليهوديّة، هذا شعور راسخ وموغل في القدم، يسبق بكثير أجيال الرفاه، التي حظيت بها غالبية اليهود المعاصرين.

بعض أنواع الكارهين

لدينا كارهون حقيقيّون، مثلنا مثل الآخرين. إنهم موجودون، مزعجون بل مدمّرون أحيانًا، لكنّهم هامشيّون وغير مهمين. الكارهون المُخترَعون هم أولئك الذين يستخدمهم قادة إسرائيل صباح مساء لصيانة منظومة المخاوف اليهوديّة الطبيعيّة والاستمرار في السيطرة بواسطتها. أما المُتخيَّلون فهم أولئك الذين يخزنهم الناس في وعيهم ولاوعيهم مثلما صُمّموا وشُكّلوا على مدى سنوات يهوديّة طويلة. تقول الأغنية الإسرائيليّة المتفائلة: «لكنّنا اجترنا فرعون وسنجتاز هذا أيضًا».[4] هناك دائمًا في الخلفية فرعون ما أو ظالم ما، ظِلّ حاضر لا يمكن الانفصال عنه. لديهم صورة قاتمة عن العالم الذي ليس هم: «كلّ الأغيار»، «كلّ العرب» والذي يتلخّص في أغنية شعبيّة أخرى « العالم كله ضدنا».[5] عندنا تزيل للحظة– من خيالك– كلّ هذا العداء، تشعر بالضغط. لأنّه في عالم مثاليّ كهذا، حيث يعيش اليهود جميعهم حياة هانئة نسبيًا مثل أغلب مواطني العالم

«لدينا كارهون حقيقيّون، مثلنا مثل الآخرين. إنهم موجودون، مزعجون بل مدمّرون أحيانًا، لكنّهم هامشيّون وغير مهمين. الكارهون المُخترَعون هم أولئك الذين يستخدمهم قادة إسرائيل صباح مساء لصيانة منظومة المخاوف اليهوديّة الطبيعيّة والاستمرار في السيطرة بواسطتها. أما المُتخيَّلون فهم أولئك الذين يخزنهم الناس في وعيهم ولاوعيهم مثلما صُمّموا وشُكّلوا على مدى سنوات يهوديّة طويلة.»

الحرّ، لن يكون عندك جواب إن كان بإمكان الشعب اليهوديّ أن يعيش من دون عدو خارجيّ؟

إرث المخاوف

في الحقيقة، يجب الاعتراف أنّ لحظات قليلة فقط في التاريخ اليهوديّ–الإسرائيليّ كانت لحظات أمل ونور. كانت إقامة الدولة في عام ١٩٤٨ مصدر سعادة كبيرة لليهود ومأساة رهيبة للفلسطينيّين. حوّل الانتصار الكاسح في عام ١٩٦٧ اليهوديّ الإسرائيليّ إلى مغرور وحوّل الجار العربيّ إلى مصدوم (على الأقل)، واقترحت مبادرة السلام المفاجئة للرئيس السادات واتفاقيات أوسلو، التي فاجأت بولادتها، توازنًا جديدًا بين الأطراف، وخلقت جوًّا من البهجة شبه الخلاصيّة...هذا كلّ ما في الأمر تقريبًا. لم نتعلّم كيف نقدّر هذا الروتين بل ونحتفل به، ولم نطوِّر لغة رجاحة العقل، وبدا أنّ السويّة غريبة عنا. لم نقم بعد بالانتقال النفسيّ الكامل من الشتات إلى المركزيّة، من المنفى إلى السيادة ومن تاريخ المخاوف والملاحقة إلى سياسة منح الثقة والثقة بالنفس. يستغل قادتنا، الكلبيون (المُرتابون بسخرية من الآخرين Cynical) مثل الكثير من القيادات السياسيّة على مرّ الزمن، نقطة الضعف الجماعيّة هذه من أجل ذاتهم ومن أجل تخليدهم.

الكثير من قادة إسرائيل– منذ إقامتها حتّى اليوم– هم تلاميذ مخلصّون وتطبيقيّون لنيكولو مكيافيلي ونظريته بالنسبة لهم: «أَضْمن أن تكون مرعبًا من أن تكون محبوبًا».[٦] قلائل منهم، لأسفهم الشديد، يُذكرون كمحبوبين. لم يسعَ أحد منهم بشعبويّة خلف حبّ الجمهور وإعجابه. ولم ينالوا الحب.[٧] لكنّ إرث المخاوف والتخويف المتراكم الذي خلفوه أبقى ندبات عميقة في نفسيّة الأمّة الإسرائيليّة. الذنب في أننا لم ننل بعد حياة «السلام والطمأنينة والهدوء والأمن»[٨] ليس فقط بسبب الحيّ الذي نسكن فيه. يتم تصميم جزء كبير من الحياة اليوميّة الإسرائيليّة بحسب مبنى الشخصيّة ورؤية الكثير من قادة الدولة السابقين والحاليّين. حوّل إرثهم المتراكم الصدمة إلى إستراتيجيّة قوميّة متواصلة، وأصبحت الثقة بالجيران أو بكل أمم العالم بمثابة كماليات لا نقبل بها لأنفسنا بالمرّة. بهذا المعنى، ليست الإسرائيليّة الجديدة سوى استمرار مضخّم ومبالغ فيه لليهوديّة القديمة التي سعينا، كإسرائيليّين، لاستبدالها إلى أبد الآبدين. ما زال العدو هو الذي يعرّف اليهوديّ الإسرائيليّ ويهوديّة إسرائيل. ونحن بعيدون عن أن نكون «شعبًا حرًّا في بلاده».[٩]

هم أيضًا...

من جهة أخرى، في العالم الخارجيّ ما زال هناك (مجدّدًا) قادة وحركات ما زالت الوصفة القديمة «اضرب اليهود وانقذ حكمك» تُسدي لهم خدمة بشكل رائع. لهذا السبب يحرّض نتنياهو ضد العرب، وأوربان في هنغاريا ضد جورج سوروس، ويغازل الرئيس ترامب المتطرفين والعنصريّين الموجودين في مختلف خزانات أميركا السيئة. أحزاب عنصريّة وشعوبيّة ترفع رأسها وتحصل على دعم وتأثير هائلين في كلّ أنحاء العالم، حيث يوجد في نواة وجودهم نواة مشعّة بديهيّة لرفض اليهود، «مثل زمان». لا نرى ذلك دائمًا تحت طبقات نفاق السياسة في زمننا. لكنّها هناك.

لطالما يلبس كارهو اليهود قناع الصداقة. ليس لأنّهم وقعوا في حبّنا فجأة. بل لأنهم يريدون تخويلًا منّا لكي يكرهوا شخصًا آخر. إنّهم يحبّون اليهود لكي يكرهوا المسلمين. «فيلوساميّون» جدد في خدمة الإسلاموفوبيا. وللأسف، يقع الكثير من الإسرائيليّين واليهود في هذا الفخ الموقوت.

لطالما يلبس كارهو اليهود قناع الصداقة. ليس لأنّهم وقعوا في حبّنا فجأة. بل لأنهم يريدون تخويلًا منّا لكي يكرهوا شخصًا آخر. إنّهم يحبّون اليهود لكي يكرهوا المسلمين. «فيلوساميّون» جدد في خدمة الإسلاموفوبيا. وللأسف، يقع الكثير من الإسرائيليّين واليهود في هذا الفخ الموقوت، من دون فهم أنّ كراهية الآخر، كلّ آخر، هي مَرَضيّة، وأنّها ستعود إلينا مجدّدًا.

يتذكّر القليلون قصيدة مارتين نيملر:

جاؤُوا أوّلاً إلى الشّيُوعيّين،
وَلَمْ أرفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ شُيوعيًّا.
ثُمّ جاؤُوا إلى الاشتراكيّين،
وَلَمْ أرفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ اشتراكيًّا.
ثمّ جاؤُوا إلى أعْضاء النّقابات،
وَلَمْ أرفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ نقابيًّا.
ثمّ جاؤُوا إلى اليَهُود،
فَلَمْ أرْفَعْ صَوْتِي،
لأنّي لَمْ أكُنْ يهوديًّا.
بَعْدَئذٍ جاؤُوا إليَّ،
فَلَمْ يَتَبَقَّ أحَدٌ
لِيَرْفَعَ صَوْتَهُ لأجْلِي».

نحبّ قليلًا أن نكون خائفين جدًا

قدرة القائد على التخويف متعلّقة برغبة شعبه في أن يكون خائفًا. والشعب اليهوديّ الإسرائيليّ يعشق الخوف، مدمن عليه. على الرغم من القوة التي لم نكن نملك مثلها أبدًا، نحن غير مستعدين للتنازل عن مكانة إسرائيل كجماعة ضحايا. كثيرون منّا بحاجة إلى الخوف من شيء كارتباط طبيعيّ وأصيل بالتاريخ اليهوديّ كما جرى ترسيخه في وعي الكثيرين. شعب الأبديّة يخلّد: «متلازمة الضحيّة المحرّرة حوّلت الخطاب الضحويّ من خطاب مصحّح إلى خطاب مخلِّد».[10] إذا كان هناك شيء نجح جهاز التعليم الإسرائيليّ بترسيخه في أعماق كينونتنا فهو ذلك الإيمان بأن سلسلة الأجيال وتتابع التاريخ اليهوديّ ليس سوى حدث كراهية كبير ومتواصل. قديم كقدم العداء بين إسحق وإسماعيل، وبين يعقوب وعيسو. تقريبًا، كل عدو هو ظالم، وكلّ خصم صعب هو هتلر وكلّ منتقد شرعيّ هو على الأقل معادٍ للسامية. على الرغم من أنّ غالبية التاريخ اليهوديّ كان تاريخًا مريحًا، فإنّ ترك أرض إسرائيل قبل خراب الهيكل الثاني وبعده كانت هجرة أكثر منها إجلاء،[11] والوجود اليهوديّ المتواصل في أماكن شتاته لم يكن أصعب من وجود الجيران الذين سكنّا معهم وبينهم. في مرّات قليلة فقط عبر هذا التاريخ الطويل قتلونا لشخصنا، وفي باقي الأوقات، كلّهم قتلوا كلّهم بسخاء القتلة، ونحن لم نكن استثنائيّين.

لدى ليهود واللاساميّين ما يتحدّثون عنه

لطالما كانت هناك كراهية كنسيّة بنيويّة، لكنّ الكراهية الدينيّة أو الاجتماعيّة لم تؤدّ في أي حالة إلى ملاحقة بهدف

الإبادة، أو بلورة الوعي اليهوديّ ليكون بعثًا قوميًا شاملًا. سعى العداء الكنسيّ، بأغلب مراحله، لأنّ يدفع اليهود لتغيير دينهم وليتنّصروا ويذوبوا، لأن يتنكروا لعقيدتهم وليأكّدوا بتنصّرهم تفوّق «العهد الجديد». في المقابل، كانت للّاسامية الجديدة أهداف معاكسة تمامًا: عنيفة وعنصريّة. في الحالة المعتدلة– طرد اليهود من بين «الشعوب المضيفة»، وفي الحالة المتطرّفة– الإبادة والقتل. يشارك الفكر الصهيونيّ، بشكل كثيف، اللاسامية الجديدة تحديدًا. يقبل اللاساميّون والصهيونيّون الفرضية بأنّ اليهود في كلّ مكان هم عنصر غريب عن مجتمع الأغلبية الذي يعيشون به. الصهيونيّون يريدوننا مركّزين في إسرائيل كدولة الحلّ اليهوديّ، واللاساميّون في أفضل حالاتهم يريدوننا خارج مدار رؤيتهم، وفي أسوأ حالاتهم خارج مدار الحياة كلّها في إطار الحلّ النهائيّ. قد تذهب التفاهمات بين هذين النقيضين– اليهودي والمعادي لليهود– حتى إلى أبعد من ذلك. يدّعي الصهيونيّ الإسرائيليّ أنّه المصل الوحيد ضد الذوبان المهدّد للشعب اليهوديّ في الشتات. ويدّعي اللاساميّ أحيانًا أنّ اليهوديّ الخفيّ، الذائب، هو الخطر الأكبر على مناعة وصحّة المجتمع كلّه. تتصل إحدى القصص المؤسّسة لعائلتنا تتصل بهذه المادة ذاتها. كان أبي، رحمه الله، يذهب كلّ يوم إلى مقر الجستابو لكي يتفاوض مع الضابط المسؤول عن تصاريح الخروج ليهود ألمانيا. «هِر د. بورغ» سأله النازيّ يومًا ما، «لماذا لا أرسلك إلى معسكر تركيز أو إلى معسكر عمل على الأقل؟». «هذه بسيطة» أجابه أبي بحنكته التلموديّة «لأنّ كلينا نريد الشيء ذاته. كلانا نريد اليهود خارج ألمانيا، وبالتالي نحن شريكان».

كنّا على مدى سنين، نستمتع بتذكّر «بطولة المحاججة» الخاصة بأبي الراحل. أمّا اليوم وعلى بعد مسافة زمنية، فأرى بالأمر أكثر من ذلك بكثير. إنّه تعاون موجود في أساس اللاساميّ واليهوديّ. في عام ١٩٤٠ في قمّة الحرب العالميّة الثانيّة أجري في بيروت لقاء غريب، فهو مليء بالتناقض الداخليّ الذي يشبه التناقض عند أبي رحمه الله. شارك في ذلك اللقاء مندوب منظّمة «ليحي»[١٢] والمندوب الدبلوماسيّ الألمانيّ فارنر أوتو فون هنتيج. في مذكرّاته، يصف فون هنتيج هذا اللقاء و«اقتراح الحلف» للتعاون النازيّ–الصهيونيّ، كما تمّ اقتراحه من قبل المقاتلين اليهود–الإسرائيليّين. حلف بين القومجيّين الاجتماعيّين الألمان والقومجيّين اليهود، أساسه دعم مجموعة شطيرن للنازيين وجهودهم ضد البريطانيّين مقابل استقلال فلسطين اليهوديّة.

اقترح مبعوث الليحي على الألمانيّ «الخطوط الأساسيّة التي تتبناها المنظّمة العسكريّة القوميّة في إسرائيل بشأن حلّ المسألة اليهوديّة في أوروبا والمشاركة الفاعلة للمنظّمة العسكريّة القوميّة في إسرائيل في الحرب إلى جانب ألمانيا. وكانت أسس الاقتراح:

تساعد المنظّمة النازيّين على حلّ المسألة اليهوديّة عبر إخلائهم «لأرض إسرائيل».

تقام في «أرض إسرائيل» دولة اليهود في حدودها التاريخيّة.

تساعد المنظّمة ألمانيا في المجال السياسيّ والعسكريّ، وفي جمع الاستخبارات في «أرض إسرائيل».

تقوم المنظّمة بتأهيل قوى بشريّة يهوديّة في أوروبا في إطار وحدات عسكريّة ستقوم بعمليات حربيّة من أجل احتلال «أرض إسرائيل».

تلتزم المنظّمة لألمانيا بأنّ حلفًا كهذا سيقوّى الأسس الأخلاقيّة للنظام الألمانيّ الجديد في عيون البشريّة.

يبدو هذا في وقتنا الحالي واهيًا غير واقعيّ، إذ إننا نعرف الأهوال النازيّة التي لم تكن غالبيتها قد حدثت حين إجراء ذلك اللقاء. لكن شيئًا واحدًا مؤكدًا– لم تنتهِ صلاحية فكرة الأساس المشترك لليهوديّ واللاساميّ بعد. وصف جان إمري[١٣] نفسه في إحدى كتاباته على أنّه «اليهوديّ الذي اخترعه هتلر». بالمقابل قال جان بول سارتر «لو لم يكن اليهوديّ موجودًا لاخترعه اللاساميّ». شيء واحد يستنتج من كلام الاثنين، اليهودي وكارهه بحاجة إلى بعضهما البعض لأنّهما يعرّفان بعضهما البعض.

اللاساميّة التي في أساس الصهيونيّة والإسرائيليّة

تعبيرات اللاساميّة قائمة في جذور الصهيونيّة. هذا هو أساس نقد إحاد هعام على هرتسل مع إطلاق الحركة الصهيونيّة، ولم يتغيّر الكثير منذ ذلك الوقت. «اللاسامي أنجب هرتسل، وهرتسل أنجب «دولة اليهود»، دولة اليهود أنجبت «الصهيونيّ»، والصهيونيّ أنجب الكونغرس. اللاساميّ هو، إذًا، السبب الأساسيّ لكلّ هذه الحركة»، وبالتالي «نفهم من خلال الكتاب [دولة اليهود لهرتسل] أنّ روح كلّ الحركة

تعبيرات اللاساميّة قائمة في جذور الصهيونيّة. هذا هو أساس نقد إحاد هعام على هرتسل مع إطلاق الحركة الصهيونيّة، ولم يتغيّر الكثير منذ ذلك الوقت. «اللاسامي أنجب هرتسل، وهرتسل أنجب «دولة اليهود»، دولة اليهود أنجبت «الصهيونيّ»، والصهيونيّ أنجب الكونغرس. اللاساميّ هو، إذًا، السبب الأساسيّ لكلّ هذه الحركة».

(الصهيونيّة) ما زالت إلى الآن هي ذاتها روح اللاساميّ فقط، لأنها ما زالت بحاجة إلى «التأثير» الدائم من قِبَل من أنجبها، كطفل بحاجة إلى أمه...».[14]

بطاقة هوية المحرقة

عندما أزور متاحف الكارثة، تستيقظ في داخلي الأفكار حول معنى بطاقة الهويّة اليهوديّة. في متحف «ياد فاشيم» الرسالة واضحة– معصرة قوميّة للدموع ومشاعر الذنب السياسيّة. كل ضيف رفيع المستوى ملزم عند زيارته بأن يمرّ من هناك، ويطأطئ رأسه عند بوابة الدخول إلى إسرائيل، ويذوّت الهندسة الصهيونيّة التي بحسبها هناك خط واحد فقط يصل بين النقطتين المهمتين للوعي الصهيونيّ: أوشفيتس والقدس.

مفهوم مختلف تمامًا لوعي تلك الفترة موجود في أسس المتحف اليهوديّ في برلين. يُدعى من يتجول في الأروقة والمعارض إلى فتح مصاريع وعيه. تمتدّ العلاقات بين اليهود وألمانيا أكثر من ألف سنة، يدّعي القائمون على المعرض. بعضها رائعة، وبعضها جيّدة والأخرى سيئة، سيئة جيدًا. يجب على الزائر ألّا يحكم على ألف سنة بناءً على الأحداث الفظيعة خلال سنوات النظام النازيّ في أواسط القرن العشرين. وعندما أزور متحف المحرقة في واشنطن يتغيّر المنظور من جديد. فذلك المتحف مخصّص لحدث تاريخيّ كثير المعاني في حياتنا، لكن التشديد العميق ليس على سيرة اليهود بل على الحقيقة أنّ الكارثة كانت حدثًا إنسانيًا قام به بشر ضد بشر آخرين. ويمكنه، على أيّ حال أن يتكرّر ويحصل مع أي شخص، ومع كلّ شعب وفي كلّ مكان. ومن هنا، ينبع التزامنا كمواطني أمّة الإنسانيّة. في نهاية ردهة المعروضات البرّاقة هناك معرض قائم منذ عدّة سنوات يعرض الفظائع التي ارتكبها الرئيس السوريّ بشار الأسد ضد مواطنيه، في أيامنا هذه. والرسالة واضحة.

دولة يد فاشيم

إسرائيل هي دولة يد فاشيم مع إضافات. قال لي أحدهم ذات مرّة «إسرائيل هي يد فاشيم مع سلاح جو». هذا ليس بعيدًا عن الواقع النفسيّ لأغلب الإسرائيليّين، الذين يحتاجون، طيلة الوقت، أن يمسكوا بأيديهم قوة لانهائيّة وغير مسبوقة يمكنهم تشغيلها ضد أي تهديد خارجيّ، صغيرا كان أم كبيرا، ولأن يكون هناك من الخارج شخص ما يعرّفهم بكراهيته لهم لكي يشعروا بهويتهم وانتمائهم اليهوديّ من الداخل.[15] لذلك، فكل شيء عندنا مخلوط بجِرار المحرقة.[16] لأنّه من دون اللاساميّ، مهما كان، ومن دون المحرقة، التي يجب منع انطفائها، لا يوجد للإسرائيليّ العاديّ تعريف ذاتيّ. أو في صياغة أكثر دقّة، لا يوجد تعريف إيجابيّ واحد يعرّف كلّ الإسرائيليّين الذين يعرّفون أنفسهم كإسرائيليّين. لو أننا اعتمدنا على القواسم الداخليّة المشتركة لكنّا غير موجودين، لأنها ليست موجودة فعلًا.

إنهم مثلنا تمامًا

من منظور إسرائيليّ، ما زالت اللاساميّة العلنيّة والخفيّة هي المحرّك المركزيّ لدواليب السياسة العالميّة. في حين أنّ نظرة موضوعيّة أكثر تكشف أنّه على الرغم من تعبيرات الكراهية واللاساميّة التي ما زالت حيّة حتّى يومنا هذا في أماكن كثيرة، إلّا أنّ اللاسامية هي قوّة هامشيّة جدًا على الساحة الدوليّة. تقف حكومات، قوانين، قوى شرطة، محاكم، منظّمات

من منظور إسرائيليّ، ما زالت اللاساميّة العلنيّة والخفيّة هي المحرّك المركزيّ لدواليب السياسة العالميّة. في حين أنّ نظرة موضوعيّة أكثر تكشف أنّه على الرغم من تعبيرات الكراهية واللاساميّة التي ما زالت حيّة حتّى يومنا هذا في أماكن كثيرة، إلّا أنّ اللاسامية هي قوّة هامشيّة جدًا على الساحة الدوليّة.

اجتماعيّة، شخصيّات عامّة، وسائل إعلام قويّة، مؤسّسات دينيّة ومفكّرون مؤثّرون، كالسدّ المنيع ضد الكراهية وجرائمها، وضد مظاهر العنصريّة وتعبيرات اللاساميّة. اللاساميّة إيّاها، التي كانت منظّمة في كنائس وأحزاب، والتي كانت أيديولوجيّة وبليغة وناجعة، لم تعد قائمة. ومهما كانت التعبيرات الحالية عنها شريرة، وحتّى لو كانت نظاميّة أو سياسيّة، فهي ليست أكثر من شأن متعلّق بمجموعات هامشيّة غير محترمة وغير مؤثّرة أو بأفراد غير متوازنين تمامًا.

يمكّننا مفهومنا لذاتنا من أن نفهم شعوبًا ودولًا أخرى فقط بالطريقة التي نفهم فيها ذاتنا. نحن نفترض مسبقًا أنّنا لا نختلف عن الآخرين، وأنّ الجميع يشبهنا بالتصرّفات والجوهر. في حين أنّنا عمليًا لا ندرك كليًا أنّ مجتمعات وثقافات أخرى تفهم ذاتها بشكل معاكس تمامًا. ضمن سيرورة التشكّل الطويلة للدولة الحديثة ولد نموذجان مركزيّان للدولة القوميّة المعروفة لنا. مجموعة دولة بنيت وهي قائمة على أساس عقد اجتماعيّ بين المواطنين، وبينهم وبين السلطة المركزيّة. كانت لكلّ واحدة من هذه الدول خلفية خاصة بها أوصلتها إلى هناك لكنّ النتيجة متشابهة. في أساس مجتمعات تلك الدول مثل إنجلترا، فرنسا، هولندا، والولايات المتحدة فرضيّة مفادها أنّ الفرد سابق للجماعة. الفرد صاحب رأي، حرّ، يملك قدرة على تمييز الخير من الشر وقدرة الاختيار بينهما. الإنسان–الفرد– هو السيّد الوحيد بغضّ النظر عن أصله، وجنسه وعقيدته أو انتمائه الاجتماعيّ. في المقابل ولدت في تلك الأيام نماذج أخرى. ألمانيا في الأيام الفظيعة، روسيا وهنغاريا اليوم هما دولتان ومجتمعان فيهما الجماعة تسبق الفرد. ليس الإنسان الفرد فيهما سوى جزيء صغير من مجموع كامل مكوّن من كل الأجزاء البشريّة التي حوله. في أحيان كثيرة لا يكون للإنسان معنى في منظومات وعي كهذه إلّا بانتمائه إلى هذه الجماعة الكبيرة. هذه «القوميّة التكامليّة»، القوميّة التي يُشمل فيها الجميع، رغمًا عنهم. قوميّة فوق كلّ سائر القيم الأخرى وتتوقع منك، كفرد، أن تطيع رغبات الجماعة.[١٧]

لكنّنا مختلفون عمّا نحن

عندما تقرأ هذه الأمور عن الاتحاد السوفييتي الذي كان وروسيا اليوم، ألمانيا النازية وتركيا أردوغان الحالية، ستُصاب بالصدمة. تقول لنفسك «نحن لسنا كذلك». فالفوضى السارية هنا، وحرية الكلام التي تقارب الهمجيّة والقدرة على أن تقوم بكلّ ما يخطر لك على بال، كلها تشكّل هنا، ظاهريًا، ديمقراطيّة حرّة ومنتعشة بأفضل صورة. لكن، بصدق، من نشبه أكثر، المملكة البريطانيّة المتحدة، أم الديمقراطيّة غير الليبراليّة في هنغاريا؟ تعدّد الآراء، تنوّع الأصول، التقسيم القبائليّ والاستقطاب المتزايد بين طائفة المحافظين (الآخذة بالازدياد) ومجتمع الليبراليّين (الآخذ بالتقلّص) هي أمور يمكنها أن تخدع المتأمّل السطحيّ، وأن تجعله يصدّق أن المجتمع هنا تعدّديّ ومتسامح. يتغيّر الإدراك عندما ننتقل من الرؤية إلى مسامع الآذان حين نصغي للصوت الإسرائيليّ. المظهر الخارجيّ خادع. الصوت الداخليّ صادق أكثر. تتردّد فيها الرغبة العميقة بواقع متخيّل وميتافيزيقيّ. حنين إلى قرين لم يكن أبدًا لكنّ الشوق إليه دائم. القوّة المحرّكة العميقة والبدائيّة هي الخوف. ومنطقه هو تقريبًا: عدم الاتفاق بيننا هو خلاف، والخلاف هو نزاع، والنزاع هو انقسام، والانقسام هو حرب أهليّة تولد من رحم الكراهية والعنف، وقد أدّت سابقًا

من تظاهرة لـمنظمة "صوت يهودي للسلام".

إلى خرابين كبيرين ولذلك علينا أن نفعل كل ما بوسعنا لألّا يطال الخراب «البيت الثالث» من خلال آليات التدمير الذاتيّ المصنوعة من «الكراهية المجانية» (كراهية غير مبرّرة) من الداخل والكارهين القساة من الخارج. هكذا نحن: نحتقر بعضنا بعضًا، نزدري ونتعالى على بعضنا البعض لكنّنا مقتنعون أنّ الوحدة ضد العدو خلف الجدار هي الدواء لكلّ داء. كلّما ابتعدنا عن الأسس العقلانيّة في أساس الفكرة السياسيّة الإسرائيليّة؛ أيّ العودة للحياة السياسيّة الدنيويّة «مثل باقي الشعوب»، كلما احتجنا عكّازات غير عقلانيّة. وبما أنّ القوى التي تحرّك إسرائيل في السنوات الأخيرة هي قوى أسطوريّة وغيبيّة فإنّ الدور الرمزيّ للاساميّ – الآخر الأبديّ الكليّ– يصبح مهمًا أكثر. مثلما كان دائمًا.

لكنّنا غير مذنبين

طبعًا غير مذنبين. عندما تتعرّض امرأة لاعتداء هناك من يحملونها دومًا ذنب الاعتداء عليها. بسبب لبسها وشكلها الخارجيّ وسمعتها. هذه مسخرة طبعًا. لأنّه يمكن لكلّ آدم وحوّاء أن يكونوا كما يشاؤون من دون أن يرى أيّ أحد بذلك شرعية للاعتداء عليهم.

لذلك، فاليهود غير مذنبين لأنّ هناك من يعمّم عليهم ويصمهم ويكرههم ويعتدي عليهم. ومع كلّ ذلك، لا يعفي هذا الأمر من فهم مساهمة اليهود بالخطاب المعادي لليهود. وبمساهمة اللاساميّين في تكوين الهويّة اليهوديّة المعارضة. السياسة الحالية للشعب اليهوديّ، بقيادة حكومة إسرائيل ومنظّمات يهوديّة حول العالم هي سياسة تبدو كأنّها تحارب اللاساميّة وكراهية إسرائيل لكنّها فعليًا تجري مع الكارهين والملاحقين حوارًا فيه اتفاق واحد مفاجئ.

القاسم المشترك الأكثر انعزاليّة

كتب الكثير عن التاريخ الغارق في القدم لعلاقات اليهود والأغيار. عن اليهود وكارهيهم. سئلت أسئلة ليس لها إجابات. يلقي الجانب اليهوديّ بكامل الذنب حول هذه التشويهات الإنسانيّة على الجانب اللاساميّ. قلائل كانوا من تجرّأوا على الاقتراب من المساهمة اليهوديّة في هذا الحديث. ادّعى الكثيرون على مدى سنين طويلة، أنّ اللاساميّ يكره اليهوديّ لأنّه يغار منه. وأنّ اليهوديّ ينغلق على نفسه لأنّهم يكرهونه. أو العكس، يكرهونه بسبب الانعزال والجدران الفاصلة. لهذا السبب أو لذاك، الكراهية دائمًا هناك. لا يهمّ لماذا ولا على ماذا، على النجاح، على الوعد، أو على الانتقاء الإلهيّ. إن كان ذلك لأنّه رأسماليّ جشع أو لأنّه شيوعيّ دوغمائيّ، ثريّ كروتشيلد أو راعي أبقار كتوقيا اللبّان. لا يثق غير اليهوديّ باليهوديّ على الرغم من أنّ وجوده في ذلك المكان قد يكون أقدم من وجود

في أحيان كثيرة يكون المختلف هو المرآة التي تنعكس من خلالها كلّ مواطن ضعفي. عندما أكره المرآة أعبّر عن غضبي على نفسي. إذًا، فاليهوديّ هو مرآة اللاساميّ واللاساميّ هو مرآة اليهوديّ. حتّى وقوع المحرقة، كانت أوصاف نقد الصهيونيّين واللاساميّين لليهوديّة القديمة متشابهة بشكل مدهش.

شعب تلك البلاد، وأنّه قد يكون مُطَّلِعًا ومتمكّنًا من الثقافة أكثر من الذين يدّعون الوطنيّة والولاء. ربما لأنّ لديه أخوة وراء الحدود وأخوات في كلّ أرجاء العالم. إنّه ليس وطنيًّا محليًّا بل هو مواطن العالم بتعريفه. فهو غريب. بعد هذا كلّه، يبدو أنّ هناك حديثا فعليّا بين اللاساميّ واليهوديّ، يجري طيلة الوقت وبمشاركة فاعلة من الطرفين.

الحديث، ككلّ الأحاديث في العالم، يحتاج إلى شيء مشترك، وإلّا فلن يكون هناك ما يجري الحديث عنه، ولا مع من يتمّ الحديث ولا كيفية الحديث ذاته. فعليًا، اليهوديّ وكارهه يتحدّثان منذ أجيال عديدة. يفهمان أكثر من كلّ الآخرين لغة بعضهما البعض. ما هي تلك اللغة المشتركة؟ اليهوديّ وكارهه، يؤمن الساميّ واللاساميّ أنّ اليهوديّ هو كائن استثنائيّ، أنّ تاريخه فريد من نوعه وأنّه لا يستجيب لأي معيار من المعايير التي يمتاز فيها المجتمع الذي يعيش فيه.

اليهوديّ مقتنع أنّه من سلالة الشعب المختار، أنّ الله فضّله عن باقي الشعوب، منحه التوراة خصيصًا وأنّه حصل من خلال قيمها وتعاليمها على معاملة خاصّة من خالق الكون. اللاساميّ يعتقد أيضًا أنّ اليهوديّ استثنائيّ لكنه استثنائيّ بالمعنى السيء. ولذلك فهو لا يناسب البنى والأطر المعروفة له.

من السهل تعليق المخاوف ومواطن الضعف على الاستثنائيّ. في أحيان كثيرة يكون المختلف هو المرآة التي تنعكس من خلالها كلّ مواطن ضعفي. عندما أكره المرآة أعبّر عن غضبي على نفسي. إذًا، فاليهوديّ هو مرآة اللاساميّ واللاساميّ هو مرآة اليهوديّ. حتّى وقوع المحرقة، كانت أوصاف نقد الصهيونيّين واللاساميّين لليهوديّة القديمة متشابهة بشكل مدهش. بعد المحرقة أُسكِتَ النقد الذاتيّ، وانتهى معها فحص ما هي الأفعال التي نُسهم من خلالها بردّهم العنيف.

الأمميّ الانعزاليّ

لا تقبل القوى السياسيّة الإسرائيليّة، التي استبدلت الفكرة الليبراليّة الأساسيّة لهرتسل،[١٨] إسرائيل كديمقراطيّة ليبراليّة يجب على حكم الأغلبية فيها أن يبقي مكانًا من أجل الدفاع عن حقوق الفرد وحريّاته. خصوصًا الفرد غير اليهوديّ. الأمّة (اليهوديّة، وليس الإسرائيليّة) بالنسبة لهذه القوى– قادة وجماهير– هي الفكرة الناظمة الكبرى والعليا التي تفوق بمكانتها كلّ القيم الأدنى منها. تكشف نظرة كهذه على إسرائيل اليوم، عمليًا، عن القاسم المشترك الإضافيّ بين اليهود وكارهيهم.

يرفض الكثير من اللاساميّين في العالم، بازدراء، فكرة الديمقراطيّة الليبراليّة المنتمية لكلّ مواطنيها، ويعتبرون العقد الاجتماعيّ بين كلّ المواطنين، بما فيهم اليهود والمهاجرون والأغراب، والمساواة المبنية الملزمة تجاه الجميع أمورًا غريبة عنهم تمامًا. المجموعات الإثنيّة الألمانيّة التي تعارض اليوم استيعاب مهاجرين ذوي بشرة داكنة، وتنشر فكرة «ألمانيا للألمان»، هي مثلها مثل أولئك الذين يؤمنون بتفوّق العرق الأبيض في الولايات المتحدة، وكلّهم كانوا وما زالوا مصابين بلاساميّة أساسيّة وواضحة. يريدون وحدة أمّتهم من دون يهود، ولا آخرين ولا ملوّنين ومن دون أي اقتراب منهم. المعسكرات الحقيقيّة هي: من جهة، هناك المؤمنون بوحدتهم مع من يشبههم فقط، وبالأفضليات والامتيازات والتفوّق على كل من هو خارج الدائرة. ومن الجهة الأخرى، هناك الملتزمون

إن كنا مختارين كمفضّلين عند الله (بنظرنا)، أو كأدنى مراتب الملّاحقين (بنظر كارهينا)، نحن، بكل حال، استثنائيّون. وهنا، في هذه النقطة تمامًا، تتشكّل اللغة المشتركة بين اليهود واللاساميّين. نحن نعشق أنفسنا لأنّنا فريدون ولأنّ الله اختارنا، وهم يزدروننا لأنّنا مختلفون واستثنائيّون.

بالمساواة الكاملة بين كلّ بني البشر. لا! العالم، كما يبدو، ليس مقسومًا إلى يهود وغير يهود، بل بين تحالف اليهود واللاساميّين الذين يؤمنون بأنّ هناك شيئا ما خاصا باليهود، استثنائيّا عن باقي بني البشر. وفي المقابل، كلّ الذين يؤمنون بأنّ كلّ البشر ولدوا متساوين ويستحقون فرصًا متساوية. وبكلمات أخرى: قسم منّا وقسم منهم ضد قسم منّا وقسم منهم وهاوية سحيقة تفصل بيننا.

الشعب الفريد

هنا يكمن جذر المرض، أصل العلاقات المَرَضيّة بين اليهود والأغيار، بين إسرائيل كدولة لليهود وباقي العالم غير اليهوديّ. يصيب د. عفري إيلاني: «تقريبًا كلّ سرديّة تاريخيّة تسعى لتحليل مسار التاريخ اليهوديّ تتطلّب في نهاية الأمر تصوّرًا... يشدّد على الخصوصيّة التاريخيّة، أو على «الطريق الفريدة» لشعب إسرائيل...قد لا يصف هذا التصوّر التاريخ اليهوديّ بمفاهيم ثيولوجيّة، لكنه يتبنّى عمليًا الفرضيّة بأنّ تاريخ الشعب اليهودي يسير وفق قواعد فريدة خاصة بها، تشذّ عن القوانين التاريخيّة العادية. تُستبدل هنا الاستثنائيّة الثيولوجيّة للشعب الذي يحبّه الله، والذي حصل على التوراة في سيناء، باستثنائيّة تاريخيّة للضحية المطلقة».[١٩] يظهر أننا نحن ومن ضدنا نقبل هذه الفرادة كفرضية أساسيّة للوجود اليهوديّ. إن كنا مختارين كمفضّلين عند الله (بنظرنا)، أو كأدنى مراتب المَلاحقين (بنظر كارهينا)، نحن، بكل حال، استثنائيّون. وهنا، في هذه النقطة تمامًا، تتشكّل اللغة المشتركة بين اليهود واللاساميّين. نحن نعشق أنفسنا لأنّنا فريدون ولأنّ الله اختارنا، وهم يزدروننا لأنّنا مختلفون واستثنائيّون. في حال فهمنا هذه اللغة وقواعدها لربما كان بإمكاننا أن نقترح بدائل أكثر صحيّة لها.

مُجزٍ لنا

لم تنجح دولة إسرائيل، ولربما لم تحاول بجديّة، أن تكسر هذه العلاقة. لأنّه من الصعب فصل كل كوابل الوعي الممتدّة منذ آلاف السنين ولأنّ الأمر تحوّل إلى أداة ناجعة ونافعة بيد القيادة السياسيّة لإسرائيل.

كسبنا أرباحًا مضاعفة بسبب تبنّي الجزء الذي يهمّنا من العالم– الغرب والدول المتطوّرة تحديدًا– لقواعد سلوك جديدة تمامًا. ومن بينها: منع مطلق للكراهية وجرائم الكراهية، والعنصريّة والتمييز، واللاساميّة وملاحقة اليهود والجرائم ضد الإنسانيّة. الربح الفوريّ واضح وطبيعيّ– وأخيرًا هناك شبكة أمان سياسيّة لليهود تحميهم من الملاحقة والتحريض. استفادت أجهزة القضاء الغربيّة من دروس القرون الماضية ومن شرّ الأشخاص والأيديولوجيّات. هكذا، تشكّل لجميع البشر حيّز نظاميّ من المفروض أن يكون محميًا من القوى والديناميكيّات التي ارتكبت الجرائم الفظيعة ضد البشريّة وإبادة الشعوب في القرن العشرين.[٢٠]

الربح الثاني متطوّر أكثر، سياسيّ في جوهره. تمّت ملاحقتنا بسبب تصوّر فرادتنا. واليوم نطالب بمكانة خاصة نابعة من محرقتنا ومأساتنا «الفريدتين». لا يوجد تقريبًا خطاب سياسيّ، ولا محاضرة أكاديميّة، ولا كتاب أو فيلم إسرائيليّ لا يتعامل مع المحرقة كحدث فريد من نوعه واستثنائيّ في تاريخ البشريّة كلّها. على رفوف دكاكين الكتب الإسرائيليّة هناك فصل واضح بين أدب الحرب العالميّة الثانية وأدب المحرقة. كأنّهما

حدثان منفصلان تمامًا دارت رحى كلّ منهما على مجرّتين متباعدتين. وكلّ علاقة بينهما هي محض صدفة. عندما يحاول مؤرخّون وباحثون وضع المحرقة ضمن سلسلة أعمال إبادة ومجازر جماعيّة ارتكبت ضد شعوب أخرى يتَّهمون بالازدراء وبإنكار الكارثة تقريبًا إذ إنّه «كيف يمكنهم المقارنة أصلًا». بالنسبة للكثيرين، يهود وغير يهود، الاختباء وراء ادعاء فرادة المحرقة مريح جدًا لكي يزيلوا عن أنفسهم مسؤولية ثقيلة ومباشرة.[٢١] حدث فريد هو حدث وحيد أيضًا. المسؤولون عنه معروفون وقد عوقبوا بشكل رمزيّ. ولا داعي بعد ذلك للاهتمام بمرفقات هذا الحدث أو قرائنه الذين يطلّون برؤوسهم من أماكن أخرى. من يدّعي فرادة المحرقة يستدعي، عمليًا، إنكارها أيضًا.[٢٢] لذلك، هذه منطقة راحة سياسيّة لقادة دول تاريخها موصوم أو أيديولوجيتها الحالية تنبع بشكل مباشر، أو غير مباشر، من أيديولوجيا النازيين وشركائهم.

هذه الفرادة مريحة جدًا لنا أيضًا. لأنّنا باسمها نطالب باحتكار المعاناة التي كانت، وكذلك بامتيازات آنية تمنح عادة للضحايا المطالبين بتمييز تصحيحيّ. نتوقّع من العالم، لأننا عانينا كثيرًا، أن يكون متسامحًا ومتساهلًا تجاه كلّ الأعمال التي نقوم بها. بما في ذلك أعمال لم يكن أحد مستعدًا لأن يقبلها أو يتحمّلها لو حصلت في مكان آخر، أو لو نفّذت في هذه الأيام ضد يهود. خلقنا في نظر العالم دائرة إدراك مُدرّة: نحن يهود، يعني أننا فريدون، لذلك لاحقونا وأبادونا، المحرقة كانت حدث ذروة فريدا لشعب فريد ولا يمكن مقارنتنا ومقارنة مصيرنا مع أي مصير آخر، دولة إسرائيل هي الوريث الشرعيّ لضحايا المحرقة ومكملة دربهم، ومن ينتقد إسرائيل وسياساتها هو معاد لليهود، ولذلك فهو لاسامي، وهذا يعني أنّ نقده باطل. لا يوجد في العالم اليوم طريقة ما لنقد إسرائيل وأعمالها. يمكن الإعجاب بإسرائيل أو المخاطرة بالحصول على وصم اللاساميّة وكراهية اليهود. لا يوجد وسط.

مساهمة الدولة

لا يمكنني أن أعدّ المرات التي قمت فيها أنا أيضًا بوصف إسرائيل كـ «دولة الشعب اليهوديّ»، فهذا تعبير دارج لدرجة أنّ معانيه الأخرى الكامنة فيه غابت عني. كان واضحًا بالنسبة لي على مدار السنين أنّ هناك تطابقا كاملا بين إسرائيليّ ويهوديّ، وتطابقا أكيدا بين دولة إسرائيل والشعب اليهوديّ. هكذا تمّ تصميم وعينا القوميّ. كل ما هو ليس إسرائيل يُلغى. إلغاء المنفى ويهوده من الخارج، وإلغاء العرب والحريديم من الداخل من أجل الوصول إلى النتيجة الإدراكيّة المنشودة: اليهوديّ، الإسرائيليّ والصهيونيّ– شيء واحد، أليس صحيحًا؟ من ناحية نظام الحكم، فإنّ الدولة، أيّ دولة، هي مجموع صلات مواطنيها وسكّانها. الصلات بينهم وبين أنفسهم، وصلاتهم مع ذكريات المكان والمصير وذلك بواسطة لغتهم في أماكن سكناهم.

تدّعي إسرائيل بلسان المتحدّثين باسمها أنّها شيء آخر. أنّها لا تنتمي لمواطنيها (وبالتأكيد ليس لكل مواطنيها، وخصوصًا العرب) بل للشعب اليهوديّ.[٢٣] هذا معناه دولة أغلب أصحاب الأسهم وأصحاب الشأن فيها لا يسكنون فيها ولا يتحدّثون لغتها. لا يدفعون لها الضرائب، ولا يخدمون في جيشها، ولا يدفعون ثمن قراراتهم، لا يَنتخِبون ولا يُنتخَبون. بحسب هذا الخطاب، إسرائيل تنتمي للشعب اليهوديّ وليس بالضرورة لمواطنيها الرسميّين.

هناك الكثير من المشاكل في نموذج نظام الحكم هذا. تتعلق إحداها بتعزيز كراهية إسرائيل في العالم. في اللحظة التي تحوّل فيها الدول كلّ يهوديّ مهما كان إلى جزء من آليات السيطرة والملكيّة لدولة إسرائيل، تعيّنه أيضًا، رغمًا عنه، مسؤولًا عن أعمال وأخطاء «دولته». تتحوّل إسرائيل من دولة مع حدود معرّفة وعلاقات مع أصدقاء وأعداء إلى كيان غير واضح المعالم موجود في كل مكان فيه يهوديّ ما. كلّ العالم جبهة وكل يهوديّ محارب. كلّ كنيس، ومركز جماهيريّ ودكان «كاشير» هو ساحة المعركة الإسرائيليّة الموسّعة. تمنح إسرائيل العالميّة الجنسيّة لكلّ يهوديّ رغمًا عنه، وتحوّله إلى إسرائيليّ كأمر واقع، وبحيث يصبح ملايين غير الإسرائيليّين أهدافًا ممكنه لكارهي إسرائيل. بدلًا من تفكيك رزم الشيطنة التي أمامنا نزيدها أكثر. نزوّد فعليًا بمجرد الربط المفروض بين السلوك السياسيّ غير اللائق لإسرائيل ويهود العالم أسبابًا وأهدافًا سياسيّة أخرى للكراهية البنيويّة للاساميّين.

وبالإضافة إلى ذلك

لا ينتهي الأمر عند تشكيل خطر على يهود العالم بسبب سياسات إسرائيل. نحن نفتقد القدرة على تقبّل النقد، أيّ

نقد، على سلوكنا السياسيّ. خصوصًا بالأجزاء التي تتعلّق بالتمييز ضد غير اليهوديّ وبحرمان ملايين الفلسطينيّين في المناطق المحتلة من الحق الديمقراطيّ الأساسيّ. نتيجة نقص الثقة الأساسيّ نردّ بفظاظة أكبر. باستهتار مطلق، بانغلاق تجاه كل مقولة لا يوجد فيها مديح مطلق لنا ولمجرّد وجودنا. بهذا، ندفع كلّ من لديه نقد على إسرائيل إلى أذرع تحالف اللاساميّة، ونوسّع بأيدينا تحالف معارضة إسرائيل بدلًا من تقليصها. لو كانت إسرائيل شخصًا، لأشارت كلّ أعراضه إلى أنّه شخصيّة شبه فصاميّة. الشخص شبه الفصاميّ[٢٤] هو إنسان يعاني من انفصام بين عالمه الخارجيّ وعالمه الداخليّ، الذي يفضّل أن يكون فيه. بين الاضطرابات الموصوفة في الأدبيّات المهنيّة يمكننا أن نجد: عدم اهتمام بالعلاقات الاجتماعيّة وميل لتفضيل نمط حياة منعزل، التشدّد في السريّة، برود عاطفيّ، انقطاع ولامبالاة. لا يستطيع الأشخاص شبه الفصاميّين، في الكثير من الأحيان، بناء علاقات قريبة وحميميّة مع الآخرين والحفاظ عليها، على الرغم من عالمهم الداخليّ الغنيّ. وتكون لديهم صعوبة كبيرة في تقبّل النقد. هذا أيضًا وصف دقيق جدًا لإسرائيل السياسيّة التي تؤمن وتتصرّف على أساس «شعب يسكن وحده» و«لا يهتّم بالأغيار»، فـ«ما لنا ولهم»، و«لا يهم ماذا يقول الأغيار بل المهم هو ما يفعله اليهود»، «أفضل من في الأغيار مقتول»، «عربيّ جيد هو عربيّ ميت» و«لا أحد يقول لنا ماذا نفعل». لو أصغت إسرائيل إلى النقد الموجّه إليها، وذوّتت ما عليها وأصلحت طريقها، وحاورت منتقديها وشرحت مواقفها لكانت حسّنت من مكانتها في العالم ومن صورتها الذاتيّة. هذا لن يحدث لأنّنا لا نريد إجراء محادثة كهذه مع العالم. نحن غير قادرين على سماع النقد. ربما لأنّ لا أحد جيد بما فيه الكفاية بنظرنا لكي يتحمّل مسؤولية صاحب النقد. تمامًا مثل أقوال حكيم قديم «قال الحاخام إليعازر بن عزريا: يحيّرني إن كان في هذا الجيل من يعرف كيف يثبت».[٢٥] على كل حال، نحن عمليًا نكره النقد، نكره كل من يُسمع النقد ونتهمه بالكراهية. ولو لأنّ الطريق الأسهل لرفض النقد هو تحويل المنتقد إلى كاره. وتجاهل نقده.

ثمّة إمكانية أخرى أيضًا

إسرائيل هي حيّز ثقافيّ مشبع بجرائم الكراهية. من كلّ الجهات الممكنة، نحن أهداف لعمليات وإرهاب وشيطنة فظيعة من قبل أولئك الذين ما زالوا يؤمنون بالعنف والإرهاب. نحن كمجتمع الضحايا الأبديّ الذي يرى بمجرد التوجّه للأمم المتحدة ليس أقل من «إرهاب سياسيّ». وبكلّ خجل، على الاعتراف بوجود فعّال وقتّال للإرهاب اليهوديّ. ذلك الجزء منّا، الذي لم يكتفِ بقتل رئيس الحكومة ولا بالاعتداء الدائم على مناصرين يهود للسلام، بل يقوم صباح مساء بتنفيذ جرائم ضد فلسطينيّين أبرياء في المناطق المحتلة وإسرائيل، مدعوما من حاخامات ومرجعيات توراتيّة، ولا يستنكّر أعمال هذا الجزء الوزراء والمسؤولون. ينّفذ شباب يهود يمينيّون راديكاليّون عمليات «تدفيع الثمن»، والتي تشمل كلّ الأعمال التي كنّا نبغضها: عنف وتخريب ممتلكات، تنكيل وقتل، رمي حجارة وحرق مساجد، اقتلاع أشجار مثمرة وإحراق حقول حبوب. وتمتدّ أيدي هؤلاء الزعران في الكثير من الأحيان ضد معارضيهم الذين على يسار المجتمع اليهوديّ الإسرائيليّ. لا أملك طرقًا أخرى لوصف هؤلاء سوى «عنصريّون قومجيّون من أبناء دين موسى»، الشبيبة الهتلريّة اليهوديّة. إنّهم ليسوا، بأي وضع أو ظرف، جزءًا من ولائي القبليّ، إنّهم أعداء أشدّاء سفكوا دماء أبرياء وبالتالي دمائهم متاحة كدمّ كلّ «مُلاحِق». حتّى لو كان مطهّرًا، يتحدّث العبريّة، متديّنا جدًا ويصلّي ثلاث مرّات في اليوم صوب القدس. للعدو القيميّ والمبدئيّ لا توجد هويّة إيجابيّة أبدًا.

في المقابل، عندي حلفاء صالحون ليسوا من السبط اليهوديّ الانعزاليّ. وحكاية حماي– أستاذي–حبيبي–صديقي تشهد على ذلك:

ولد في مطلع سنوات العشرين في منطقة الألزاس في فرنسا، كان ناشطًا في المقاومة السلميّة كما كان ناشطًا في المقاومة المسلّحة ضد الاحتلال النازيّ. هو مؤرّخ ومربٍّ وهو الشخص البالغ الأهم في حياتي عدا والديّ الراحلين. زرع في داخلي الفهم بأنّ المعجزة الكبرى للحرب العالميّة الثانية لم تكن إنقاذ الشعب اليهوديّ. بل هي حكاية الصالحين بين الأمم. أولئك الذين بشجاعتهم النادرة أنقذوا الكثير من الضحايا والملاحقين وأنقذوا بذلك الإنسانيّة والبشريّة. منذ ذلك الحين، يخصّص عشرات السنين من حياته لإيجاد الصالحين بين الأمم وتقديم النياشين لهم. مفهوم ضمنًا أنّه يؤمن على نحو كبير وجوهريّ بالسلام والحب لكل بني البشر من دون أن تعزل بينهم الحدود والهويّات، وهو ملتزم

من دون شروط بالمجتمع التعدّدي المتضامِن. إنّه قدوة ساحرة وراقية. وهاكم قصّة صغيرة–عملاقة تطوي داخلها حياته هو والبديل لنا نحن.

«خلال كلّ أيام المقاومة والنضال حملت في حقيبتي كتاب التوراة بالعبريّة. وعندما عدنا [المقاتلون ضد الاحتلال] إلى معسكرنا المهدوم في لاكادو وجدنا كتاب التوراة هذا تحت كومة من براز البشر. لم يسلم أي شيء من معداتي الشخصيّة من أيدي جنود الوورماخت الناهبين؛ وجد أحدهم، كما يبدو هذه التوراة، وكان يعرف طبعًا أنّ هذا غرض يهوديّ، فعبّر عن كراهيته (وربما خوفه) عبر تدنيسه. هل فهم معنى الصورة التي مثّلها هذا الفعل، فعل يجسّد كل ما كان موضوعًا على كفّة ميزان تلك الحرب؟ أخبرت القس دوكومان ماذا كانت نهاية كتاب التوراة خاصتي، الذي قبرته في المكان الذي وجدته فيه، كما توصي الشريعة اليهوديّة. بعد ثلاث سنوات، عندما كنت طالبًا جامعيًا في ليون، وصلتني رزمة صغيرة في البريد. كان ذلك كتاب توراة بالعبريّة، بنسخة يستلطفها كلّ محبو الكتب– نسخة طبعت في لايبزج سنة ١٨٣٢– وقد أرفقت به رسالة قصيرة بخط اليد: «تربيتي الدينيّة تشبه تربية الناس الذين دنّسوا كتاب التوراة الخاص بك، وأنا أشعر أنّ عليّ أن أكون شريكًا بمسؤولية تنفيذ هذا التصحيح. مارسيل دوكومان».

اعترف بتواضع– كان هذا القس البروتستانتيّ أحد معلميّ الروحانيّين، من دون علاقة للهويّة الدينيّة لكلينا. في ١١ كانون الأول ٢٠٠٩ أشعلت النار في مسجد قرية ياسوف قرب نابلس شمالي الضفّة. مجموعة شباب يهود، سكّان مستوطنة قريبة، حاولت إحراق المسجد وتدنيس كتب القرآن التي فيه. لقد أغضبني هذا العمل الفظيع. أعطيت للمسلمين في القرية كتاب قرآن جديدا وأنيقا أرفقت به بطاقة مكتوب عليها بالعربيّة: «تربيتي الدينيّة تشبه تربية الناس الذين دنّسوا كتاب القرآن الخاص بكم، وأنا أشعر أنّ عليّ أن أكون شريكًا بمسؤولية تنفيذ هذا التصحيح». ترجمة محدّثة للواقع الإسرائيليّ الآنيّ».

بهذه الروح الكبيرة يمكن، بل يجب، تصميم سياسة أخرى للشعب اليهوديّ. ليس المزيد من الكراهية مقابل الكراهية، ليس ضحوية دائمة لا تمكّن من التعافي، بل إقامة جبهة عالميّة ضد الكراهية، والكارهين وجرائمهم. لا يوجد لأحد في الحلف الإنسانيّ الشامل هذا احتكار للمعاناة. يهود ومسلمون، نساء مهمّشات وأصحاب ميول جنسيّة مميَّز ضدهم، مهاجرون وأصحاب آراء متحدية– معًا. ستقف هذه الجبهة معًا– مع القس البروتستانتيّ والمؤرّخ والمربي اليهوديّ– في كلّ مكان فيه كراهية. وستقدّم بديلًا مصنوعًا من إنسانيّة حاضنة للجميع، ضد كلّ تعبير عن كراهية وعنف. ستبادر إسرائيل لإقامة جبهة كهذه، وستعمل من أجل نجاحها، بنفس الأدوات السياسيّة والعاطفيّة التي تبنيناها منذ نهاية الحرب العالميّة الثانيّة ورعبها.

ستكون إسرائيل هذه ملتزمة بتغيير سياساتها الخارجيّة، لكن أولًا وقبل شيء ستغيّر من سياساتها الداخليّة. من «الإنسان للإنسان ذئب» إلى «محب للإنسان، كلّ إنسان، لأنّه خلق على صورته». وبهذا لا تضيف الكثير من الخير لإصلاح العالم فقط بل تنجح أخيرًا بالوصول إلى سفوح الجبل العالي الذي تطمح لتسلّقه وتفشل مرّة تلو الأخرى. ذلك الجبل الذي على قمته منارة من المفروض أن تشعّ «نورًا للأغيار».

حكاية كتاب القرآن هذه ستثبت شيئًا ما. في أحد الأيام توجّه أحد حاخامات السلام – الحاخام الراحل مناحين فرومان– إلى حماي وطلب منه موافقة على عرض كتاب القرآن العينيّ هذا على أحد القيادات الدينيّة المهمة في تركيا. حماي الذي لا يرفض أيّ فكرة إنسانيّة وصانعة للسلام، وافق كما وافقت كذلك جماعة المسجد في ياسوف. انتقل كتاب القرآن ذاك إلى أنقرة كجزء من الجهد الكبير لإصلاح الحوار المقطوع مع رئيس تركيا– رجب طيب أردوغان وإسرائيل. وهذا ما كان، ومن يعلم ماذا ستكون محطته القادمة في روح كبار الروح؟

(ترجمه عن العبرية: إياد برغوثي)

هوامش

١. تمّ توجيه تهمة تسميم آبار لكوريّين سكنوا في اليابان بعد الهزّة الأرضيّة الكبيرة في كانتو سنة ١٩٢٣. في الحالتين لم يتمّ إثبات التهم، لكنها أدّت إلى مذابح.

٢. في علم النفس الإنسانيّ هناك كراهية ميتافيزيقيّة: ينفر اليهود والمسلمون من الخنزير رغم كونه حيوانا لطيفا، يكره الناس الثعابين رغم أنّهم لم يواجهوا حيوانًا زاحفًا، عمليق هو شيطان متخيّل، وهناك أوروبيّون لم يلتقوا بمسلمين أبدًا لكنّهم مصابون بإسلاموفوبيا صعبة.

٣. ولو بسبب الأخبار المتواصلة حول الازدياد الواضح بالمظاهر اللاساميّة في العالم.

٤. كلمات أغنية «وتجاوزنا فرعون» هي من تأليف المغني الإسرائيلي مئير أريئيل

٥. وضع كلمات الأغنية «العالم كله ضدنا» الشاعر يورام طهارليب، في سنة ١٩٦٩.

علّمنا هذه النشيد

أجدادنا العجز

سننشده ومن بعدنا

سينشده أبناؤنا.

وأحفاد أحفادنا سينشدونه

هنا في أرض إسرائيل

ومن هو ضدنا

فليذهب للجحيم!

٦. نيكولو مكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧)، سياسيّ وفيلسوف إيطاليّ. منظّر مؤثّر بالواقعية السياسيّة.

٧. لم ينهِ أحد حياته بشكل جيّد. نفي بن غوريون للصحراء ولم تتم إعادته، وشاريت لم يترك أثرًا، إشكول تم الاستخفاف به ونُسي، بيغين انطفأ دونما قوّة، رابين اغتيل، شارون انتهى ضمن جدل عام صعب، أولمرت قضى عقوبته بالسجن وشامير لم يترك أيّ أثر.

٨. من صلاة السبت.

٩. من «هتكفا»- النشيد القوميّ الإسرائيليّ.

١٠. ألون جال، ضحويتهم مهنتهم. (القدس: المعهد الإسرائيليّ للديمقراطيّة. ٢٠١٤)، ص ٢٨

١١. « لم يؤد خراب البيت الثاني إلى تفريغ البلاد من سكانها اليهود، وفي أي حال لا يوجد أي أساس تاريخي فعليّ لحكاية الإجلاء من البلاد من قِبَل روما المنتصرة، انظروا: يسرائيل يوفال، «أسطورة الإجلاء من البلاد». ألبايم. عدد ٢٩ (٢٠٠٥)، ص ٢.

١٢. ليحي- لوحمي حيروت ليسرائيل. منظّمة بقيادة أبراهام شتيرن والتي سميت آنذاك «المنظمة العسكريّة القوميّة في إسرائيل».

١٣. جان إمري ١٩١٢-١٩٧٨ ولد في النمسا لعائلة يهوديّة باسم هانس مايير...شارك بمقاومة النظام النازيّ، اعتقل وتم تعذيبه. صمد إمري في معسكرات التركير أوشفيتس وبوخنوولد. مقالاته التي نشرت بعد عقود من الحرب العالميّة الثانية تتناول مواجهته الفلسفيّة كمثقّف مع معاني المحرقة.

١٤. إحاد هعام، «الكونغرس وصانعه». على موقع «مشروع بن يهودا: https://benyehuda.org/read/7352

١٥. الألع من بينها كان تشخيص/تعريف رئيس الحكومة ليفي إشكول (١٩٦٣-١٩٦٩) حين وجّه قائد سلاح الجو في حينه عيزر وايزمان قائلًا: «مثّل إسرائيل مثل شمشون البطل المسكين».

١٦. في إحياء ذكرى المحرقة سنة ٢٠٢٠، في ذروة وباء الكورونا، قال رئيس الحكومة في طقس أقيم في «يد فاشيم»: «ليس كما في المحرقة- في الكورونا عرفنا الخطر في موضوع الوقت». لاحقًا في حديثه، عمّق رئيس الحكومة هذه المقارنة المنزوعة السياق حيث قال «سمعت ك. تستنيك وناجين آخرين يقولون- «لن تتمكنوا أبدًا من فهم ما مرّرنا به»، معهم حق- لن نستطيع فهم ذلك أبدًا لأنّ لا شيء يشبه المحرقة. هذا صحيح أيضًا بالنسبة لأزمة الكورونا العالميّة، التي يراها البعض التحدي الأكبر للإنسانيّة منذ الحرب العالميّة الثانية».

https://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-5717957,00.html

١٧. «من ناحية سياسيّة، تشدّد القبليّة القوميّة بشكل دائم على أنّ شعبها محاط على الدوام بـ»عالم من الأعداء»، «واحد ضد الجميع»، وأنّ هناك فرقا جوهريا بين هذا الشعب وكلّ الآخرين. وهي تدعي فرادة هذا الشعب، وعدم التطابق بينه وبين الشعوب الأخرى، وترفض نظريًّا كلّ إمكانية لإنسانيّة مشتركة، وهذا قبل وقت طويل من استخدام هذا الادعاء لتخريب إنسانيّة الإنسان». هذا ما كتبته حانا أرندت في كتابها أصول الشموليّة. ١٩٥١

١٨. «هل يمكن لكهنة ديننا أن يحكمونا؟ لا! الإيمان هو ربما العلاقة التي توحّدنا، لكننا أحرار بقوة الحكم والعلوم ولذلك لن ندع الغرائز الثيوقراطيّة لرجال الدين ترفع رأسها. سنعرف كيف نبقيها في كنسها، مثلنا سنبقي جيشنا العامل في الثكنات. سيحترم الجيش وسيحترم الكهنوت، كما هو مطلوب ولائق بهذه الأدوار الجميلة. في شؤون الدولة، ومع كل التقدير لهم، ممنوع أن يتدخلوا، لألا يجلبوا عليها الصعاب من الداخل والخارج». هرتسل، دولة اليهود ١٨٩٦

١٩. عفري ايلاني، «شعب مختار»، موقع الدورية المعجمية **مفتيح**، ٩ (٢٠١٥) https://mafteakh.org/wp-content/uploads/2019/09/9-2015-07.pdf

٢٠. «هناك من يدعي أنّه في القرن العشرين كانت هناك أعمال إبادة جماعيّة أكثر من كلّ قرن سابق في التاريخ الإنسانيّ، ويعرّفون هذا القرن بـ»قرن الإبادة الجماعيّة» أو «قرن العنف»، أنظروا: يائير أورون. **ألم المعرفة**. (الجامعة المفتوحة، ٢٠٠٣)، ص ٢٠٨.

وفي محادثات خاصة قال أورون على مسمعي أنّه في القرن العشرين قتل في مثل هذه الجرائم أكثر من ١٦٠ مليون إنسان.

٢١. «الثقافة العالميّة لذاكرة المحرقة تروّج تصوّرًا يرى بالمحرقة ظاهرة فريدة من ناحية تاريخيّة، منفصلة كليًا عن أنماط العنف الجماعيّة للدول القوميّة في القرن العشرين، وخصوصا في الحرب العالميّة الثانية. العنف الجماهيريّ الذي وجّه نحو يهود هنغاريا، مثلًا، تم فحصه فقط نسبة للعنف تجاه اليهود في أنحاء أوروبا، وبالنسبة لتجاهل السياق المباشر: عنف الدولة تجاه اليهود والأقليات الأخرى الذين عرضتهم الرؤية الهنغاريّة الإثنيّة-القوميّة كأغراب ومساكين. على الرغم من أنّ أغلب الأبحاث عن المحرقة ترفض براديغم الفرادة، ما زالت دول قوميّة كثيرة تروّجها. هذا الاستخدام لذاكرة المحرقة يمكّنها من عدم الاعتراف بمسؤوليتها عن فظائع المحرقة ومنع أيّ مقارنة مع عنف دولة قوميّة في الوقت الحاضر». انظروا: راز سيجال، «سياسة ذاكرة الكارثة في الدولة القومية»، موقع دورية **هزمان هزيه**. كانون الثاني ٢٠٢٠ /https://hazmanhazeh.org.il/segal

٢٢. «هل المحرقة فريدة من نوعها؟ سأدّعي أنّها ليست كذلك. على الرغم من أنّي أقول إنّها كانت فريدة؛ أيّ حدثًا لمر ة واحدة لن يتكرّر، يمكن نسيانه، لأنّه لا خطر في أن يكون حدث شبيه مثله في المستقبل». يهودا باور. «المحرقة والإبادة الجماعيّة»، أيلول ٢٠١٢. https://www.academy.ac.il/SystemFiles/21527.pdf

٢٣. في عام ٢٠١٨، وبعد سنين طويلة من مثل هذا الخطاب، تحوّل الأمر إلى قانون أساس: «دولة إسرائيل هي دولة الشعب اليهوديّ»

٢٤. يونانيّة.

٢٥. تلمود بابل، مسيخت عرخين. ص ١٥، ب